اسمحُوا لِي - أَوَّلًا- أن أبدَأَ مِن منظورٍ شخصِيٍّ لهويَّتِي التَّعدُّدِيَّةِ، ينطَوِي علَى قصَّةٍ بسيطَةٍ لأَحَدِ المسلمِينَ البُوسنيِّينَ عِرقِيًّا وَمُوَاطِنِي دَولَةِ البوسنَةِ، وَهُم أفرادُ الشَّعبِ الَّذِي يحاولُ الحفاظَ علَى أفضلِ القِيَمِ الأوروبيَّةِ وعلَى الهُويَّاتِ المتعدِّدةِ، إلَى جانبِ كونِهِم مسلمِينَ أوروبيِّينَ مستقِلِّينَ لقرونٍ، مُوَفِّرًا الحمايَةَ لليهُودِ من محاكِمِ التَّفتِيشِ فِي إسبانيَا، ومُتَعَايِشًا معَ جيرانِهِ المسيحيِّينَ فِي خلالِ فترَاتِ الحربِ والسَّلامِ؛ حيثُ كانَ كلٌّ منهُمَا يقُومُ علَى حمايَةِ الآخَرِ بصورَةٍ مُتَبَادَلَةٍ، وذلكَ من خلالِ توفِيرِ بيئَةٍ يُمكنُنَا تسميتُهَا اليومَ بِالمجتمَعِ المشتَرَكِ.

ولكَونِي من سَرايِيفُو؛ القُدسِ الأوروبيَّةِ، وهِيَ التَّسميةُ الَّتِي أطلَقَهَا علينَا البَابَا فرَانسِيسُ عندَ زيارَتِهِ لنَا منذُ مَا يقرُبُ من ثلاثِ سنوَاتٍ مَضَت؛ وكمُواطِنٍ بُوسنِيٍّ فخورٌ بكَونِي -كذلِكَ- بُوسنيًّا وأوروبيًّا، فإنَّنِي أنتمِي إلَى أغلبيَّةٍ عُظمَى لشعبٍ يعيشُ فِي قلبِ أوروبَّا، حيثُ يلتقِي الشَّرقُ والغربُ، ولديهِ التِزَامٌ قاطِعٌ وواضحٌ بِدَعمِ وتوطِيدِ وتحقيقِ مفهومِ المجتمَعَاتِ والقِيَمِ المشتركَةِ فِي إطارِ تنميَّةٍ سلميَّةٍ مُستَدَامَةٍ. وهُوَ المفهومُ الَّذِي يمكنُ مشاركَتُهُ عالميًّا وإقليمِيًّا، فِي عَالَمٍ بالغِ الثَّراءِ والتَّنوُّعِ، وبينَ الأفرادِ داخلَ المجتمعَاتِ، معَ الاحتِفَاءِ والتَّمتُّعِ بالهُويَّاتِ المتعدِّدَةِ والمتنوِّعَةِ.

إنَّ تاريخَنَا مَشُوبٌ بنقاطٍ مُظلِمَةٍ، ولَا بأسَ بذلِكَ، فحتَّى أقسَى التَّحديَّاتِ كانت تَنطَوِي علَى تصرُّفاتِ شُجَاعةٍ من جانبِ شعبٍ كريمٍ وحكيمٍ كانَ قادرًا علَى حمايةِ قِيَمِهِ وحقُوقِهِ وهُويَّاتِهِ وكرامَتِهِ عن طريقِ حمايةِ جيرَانِهِ، أصحابِ الهُويَّاتِ المختلِفَةِ، فِي مواجهَةِ قُوَى الشَّرِّ، وسأشارِكُكُم بعضَ الأمثلَةِ البسيطَةِ باختصَارٍ شديدٍ.

فِي العامِ القادِمِ ستحتَفِلُ الطَّائفتَانِ المسلمَةُ واليهوديَّةُ معًا بمرُورِ مائتَي عامٍ علَى عيدِ النَّصيبِ «بُوريم سرَايِيفُو». ففِي العامِ ١٩١٨م، وَقَفَت مجموعةٌ منَ الشَّخصيَّاتِ الإسلاميَّةِ المحليَّةِ فِي زمنِ الإمبراطوريَّةِ، فِي مواجهَةِ رشدِي باشَا (Ruzdi Pasa)، الحاكِمِ البُوسنِيِّ باسمِ السُّلطَانِ، حينَ اعتَقَلَ بعضَ جيرَانِهِم ظُلمًا، كانَ مِن بينِهِم رَابِين سَرَايِيفُو ومجموعَة من وجهَاءِ اليهُودِ.

لقدِ اندلَعَت الحربُ العالميَّةُ الثَّانيةُ حينَ قامَ «غَافريلو برينسِيب» باغتيالِ «الأَرشِيدُوقِ فِردِينَانَدَ» وزوجَتِهِ صُوفيَا فِي سَرَايِيفُو، وحينئذٍ شَرَعَت السُّلطاتُ النِّمساويَّةُ المَجَريَّةُ فِي ارتكابِ سِلسلةٍ من رُدُودِ الفِعلِ الوحشيَّةِ ضدَّ السُّكَّانِ الصِّربِ الأرثُوذكسِ فِي أجزَاءٍ منَ البُوسنَةِ. وعندَئذٍ نَشرَ المُفتِي الأكبرُ/جمالُ الدِّينِ تشَاوشِيفِيتش بيانًا فِي (المنارةِ الجديدَةِ) (Jeni Misbah) دعَا فيهِ المسلمِينَ كَي يحمُوا الصِّربَ الأرثوذكسَ منَ القَمعِ النِّمساوِيِّ المَجَرِيِّ. وقد أيَّدَ «الكَاردِينَالُ يُوسِيبُ ستَادلر» بيَان المفتِي الأكبرَ، وحينئذٍ أوقَفَت سلطَاتُ الحُكمِ التَّابعةُ للإمبراطوريَّةِ العُظمَى قمعَهَا للأبريَاءِ من أبناءِ هذَا الشَّعبِ.

وقد مرَّتِ البوسنَةُ والهرسَكُ -عبرَ تاريخِهَا الحدِيثِ البَالِغِ ٢٥ عامًا وكدولَةٍ عُضوٍ فِي الأمَمِ المتَّحدَةِ- بمراحِلَ منَ الفَشَلِ فِي: منعِ الصِّراعِ، مُرُورًا بالحربِ، وجرائِمِ الإبادَةِ الجماعِيَّةِ الأخيرةِ فِي أوروبَّا فِي القرنِ العشرِينَ، وعمليَّةِ سلامٍ، وأخيرًا بناءِ دولةِ مَا بعدَ الصِّراعِ عن طريقِ عمليَّاتِ اندمَاجٍ ومشاركَةٍ أوروبيَّةٍ أطلانطِيَّةٍ مستمرَّةٍ فِي بَعَثَاتِ السَّلامِ الأُمَمِيَّةِ.

نحنُ نعرفُ أنَّنَا جميعًا نختلِفُ عن بعضِنَا البَعض، كشعُوبٍ وكأمَمٍ؛ ولكنَّنَا فِي الوقتِ ذاتِهِ نعرفُ أنَّ هناكَ العوامِلَ الَّتِي تجمعُنَا، وذلكَ فِي إطارِ فهمِنَا لبعضِنَا البَعض، وهيَ أكبرُ بكثيرٍ منَ العوامِلِ الَّتِي تُفَرِّقُنَا عبرَ تصنِيفَاتٍ مختلفَةٍ تجعلُنَا فِي مواجهةٍ ضدَّ بعضِنَا البَعْض.

وبرغمِ الظُّروفِ التَّاريخيَّةِ المختلفَةِ، والبيئَةِ الَّتِي اتَّسَمَت بالتَّعدُّديَّةِ العرقِيَّةِ والثَّقافيَّةِ والدِّينيَّةِ، فقد عشنَا لقرونٍ كمجتمعٍ مشتركٍ واحدٍ. وبعدَ تفكُّكِ الدَّولةِ البوسنِيَّةِ القروسطيَّةِ عشنَا لمدَّةِ خمسةِ قرونٍ تحتَ نيرِ احتلالٍ من جانبِ إمبراطوريَّاتٍ كُبرَى، وأنظِمَةِ حكمٍ شموليَّةٍ، وحكوماتٍ غيرِ ديمقراطيَّةٍ، بحسبِ المعَايِيرِ المعاصرَةِ بَدءًا بالإمبراطوريَّاتِ العثمانيَّةِ والنِّمساويَّةِ المجريَّةِ، ومُرورًا بالمملكَةِ اليُوغُوسلَافِيَّةِ، والاحتلالِ فِي خلالِ فترةِ الحربِ العالميَّةِ الثَّانيةِ، والدُّولِ الفاشِيَّةِ العَمِيلَةِ، والمَارشَالِ تِيتُو ونظامِهِ الاشتراكِيِّ، ولكنَّنَا كنَّا دائمًا نعيشُ فِي مجتمعاتٍ مشتركةٍ وليست منقسِمَةً.

وحينَ سقطَ حائطُ «برين» تَبَنَّتِ الأُوتُوقرَاطِيَّةُ الشُّموليَّةُ القديمَةُ سياساتٍ قوميَّةً، انفصالِيَّةً وانعزَاليَّةً، وحاوَلَت إقنَاعَنَا أنَّهُ لم يعُد بمقدُورِنَا أن نعيشَ فِي مجتمعَاتٍ جامِعَةٍ مشتركَةٍ ومتسامِحَةٍ؛ لأنَّنَا نُطَبِّقُ الدِّيمقراطِيَّةَ - وأنَّ الأممَ والطَّوائِفَ العِرقِيَّةَ والدِّينيَّةَ ينبَغِي أن تعِيشَ فِي إطَارِ مجتمعَاتٍ معزُولَةٍ خاصَّةٍ، وليسَ فِي إطارِ مجتمعاتٍ جامعةٍ مشتركةٍ، كنَّا نعيشُ فِي ظلِّهَا تاريخيًّا بدونِ ديمقراطيَّةٍ. ولذَا، فقد استَنتَجُوا أنَّ الدِّيمقراطيَّةَ والقومِيَّةَ والانعزَالَ هِيَ الحلُّ، وَهِيَ المصِيرُ بالنِّسبةِ إلينَا.
فِي ذلكَ الوقتِ لم أستطِع بِبَسَاطَةٍ تقَبُّلَ هذَا الاستنتَاجِ الخَاطِئِ والمُرعِبِ أيضًا - مِن أنَّ بإمكَانِنَا العيشَ وتحقيقَ الازدهارِ فِي مجتمعٍ مشتركٍ فقط إذَا تخلَّينَا عنِ الدِّيمقراطيَّةِ. وقد كانَ الأشخاصُ- الَّذِينَ هُم فِي السِّجنِ الآنَ لارتِكَابِهِم جرَائِمَ منظَّمَةً- يُخبرُونَنَا أنَّنَا ينبغِي فِي ظلِّ الدِّيمقراطيَّةِ أن نعيشَ مُنقسِمِينَ بحسبِ اختلَافَاتِنَا العِرقِيَّةِ والدِّينيَّةِ، وقد استحقُّوا بسببِ طريقةِ التَّفكيرِ هذهِ الأحكامَ الصَّادِرَةَ بحقِّهِم عن محكمَةِ «لَاهَاي» الدَّوليَّةِ لجَرَائِمِ الحربِ والإبَادَةِ الجَمَاعيَّةِ فِي «سريبرينيتشَا». فقد كانَ ذنبُ مسلمِي البوسنَةِ من ضحَايَا الإبادَةِ العِرقِيَّةِ، فِي نَظَرِ تلكَ العقولِ الإجراميَّةِ، هُوَ مجرَّد كونِهِم مسلمِينَ يؤمنُونَ بالقِيَمِ الأوروبيَّةِ - أي الدِّيمقراطيَّةَ- والمستقبلَ المشترَكَ والوحدَةَ فِي إطارِ التَّنوُّعِ.
والمجتمعُ المشتركُ - الَّذِي هُوَ مجتمعٌ متعدِّدُ الأعرَاقِ والأديَانِ والثَّقافاتِ - هُوَ بالتَّعريفِ مجتمعٌ جامِعٌ يَحظَى فيهِ كافَّةُ الأفرادِ والطَّوائفِ بكونِهِم مُشَارِكِينَ مُتَساوِينَ يتمتَّعُونَ بحريَّةِ التَّعبيرِ عن اختلافَاتِهِم فِي ظلِّ اندمَاجِ أصواتِهِم فِي المجتمَعِ السُّكَّانيِّ الأوسَعِ، وهُوَ مجتمعٌ يحترمُ الكرامَةَ والحقُوقَ الإنسانيَّةَ لكلِّ فردٍ معَ توفيرِ فُرَصٍ مُتَكافِئَةٍ للجَميعِ.
إنَّ القِيَمَ الأساسيَّةَ فِي الإسلامِ إلَى جانِبِ قِيَمِ أوروبَّا اليومَ، تمثِّلُ القِيَمَ الأساسيَّةَ للمجتمعِ المشتركِ، وهِيَ حواجزُ مشتركةٌ مانِعَةٌ لأسبابِ التَّدهوُرِ الإنسانيِّ الَّذِي يُحدِثُهُ الظُّلمُ والانفصالُ وعدمُ المساواةِ محليًّا وعالميًّا.
أنَا لَا أتقَبَّلُ فكرةَ أنَّ هناكَ توتُّرًا طبيعيًّا وحتميًّا بينَ المسلمينَ وبقيَّةِ الأوروبيِّينَ، لأنَّنِي لو فعلتُ أكونُ قد تجاهَلتُ الحقيقَةَ التَّاريخيَّةَ بأنَّ

المسلمِينَ فِي البوسنَةِ هم جزءٌ منَ الهُويَّةِ الأوروبيَّةِ والتُّراثِ الأوربيِّ، وهذَا بدَورِهِ سيؤدِّي إلَى دعوةٍ جديدةٍ إلَى تَقويضِ القِيَمِ الأوروبيَّةِ الأساسيَّةِ الَّتِي يُجَسِّدُهَا شِعَارُ «الوحدةِ فِي التَّنوُّعِ».

وهذَا هوَ السَّببُ فِي أنَّ مستقبلَ البوسنَةِ كدولةٍ مدنيَّةٍ وكمجتمعٍ مشتركٍ، إلَى جانبِ مستقبَلِ المسلمِينَ البوسنيِّينَ الَّذِينَ هم مُواطنُونَ فِي الاتِّحَادِ الأوروبيِّ، هوَ إشارةٌ واضحةٌ حولَ مستقبلِ الاتِّحادِ الأوروبيِّ القائِمِ علَى ركيزَتِهِ الجوهريَّةِ، وهيَ الاتِّفاقيَّةُ الأوروبيَّةُ لحمَايَةِ حقوقِ الإنسانِ والحريَّاتِ الأساسيَّةِ.

إنَّ الحقيقةَ التَّاريخيَّةَ بأنَّ المسلمِينَ هم جزءٌ منَ الهويَّةِ والتُّراثِ الأوروبيِّينِ، توضِّحُ إلَى حدٍّ مَا السَّببَ فِي أنَّ المسلمِينَ البوسنيِّينَ والبوشنَاقَ، فِي دولتِنَا متعدِّدَةِ الأعرَاقِ والأديَانِ، مَا زالُوا هُم الدَّاعمَ الأكبرَ لعمليَّةِ تسريعِ اندِماجِ البوسنَةِ والهرسكِ، كدولةٍ مدنيَّةٍ موحَّدَةٍ، عضوًا كاملَ العضويَّةِ فِي الاتِّحادِ الأوروبيِّ وحِلفِ النّاتُو، كوطنٍ وملاذٍ مشتركٍ لنَا، وذلكَ برغمِ تجربةِ الإبادةِ الجماعيَّةِ فِي «سريبرينيتشَا».

ولَا غَروَ أنَّ عناصرَ الطَّيفِ السِّياسيِّ منَ الشّعبَوِيِّينَ اليمينيِّينَ والرَّادِيكَالِيِّينَ -محليًّا وأوروبيًّا- يدعمُونَ انقسامَ البوسنَةِ والهرسكِ، أو وَضعَهَا تحتَ «وضعٍ خاصٍّ» لحُكمٍ إثنُوقرَاطيٍّ(*) وليسَ ديمقراطيًّا؛ بينَمَا حقيقةُ وضعِنَا اليومَ هِيَ أنَّ مَا يربُو علَى مليونَي مسلمٍ، أو أقلّ من نصفِ تَعدَادِ السُّكَّانِ فِي البلادِ، يرغبُونَ فِي أن يعيشُوا كمواطِنينَ فِي بلدٍ علمانِيٍّ وفِي مجتمعٍ مشتركٍ، وهم لَا يخشَونَ مِن كونِهِم مواطنِينَ فِي ظلِّ بلدٍ واحدٍ ذِي أغلَبيَّةٍ عُظمَى غيرِ مسلمةٍ، ضمنَ وطنٍ أوروبيٍّ لأكثرَ مِن نصفِ بليُونِ مواطنٍ أوروبيٍّ، بل همُ علَى العكسِ من ذلكَ، يتطلَّعُونَ إلَى إيجادِ طريقٍ لمستقبلٍ مشتركٍ علَى أساسِ هُويَّاتِهِمِ المتعدِّدَةِ، معَ الاحتِفَاءِ باختلافاتِهِم وليسَ القضَاءَ عليهَا.

إنَّ للإسلامِ ولأوروبَّا اليومَ أعداءً كمَا أنَّ لهم أنصارًا. وللتَّحديدِ سأبدَأُ بسَردِ قائمةٍ قصيرةٍ لأعداءِ فريقِ الإسلامِ وأوروبَّا، وأعداءِ الحضارةِ فِي أيِّ جزءٍ منَ العالَمِ اليومَ.

تبدأُ قائمةُ أعداءِ الحضارَةِ والإسلامِ وأوروبَّا فِي تشكيلَتِهَا الأساسيَّةِ بالغضَبِ والإقصَاءِ، والجهلِ وعدمِ المساواةِ والظُّلمِ، وانعدَامِ الأمنِ والخوفِ والشّعبَوِيَّةِ والفقرِ، والوضعِ الرَّاهِنِ المُتحَجِّر، والتَّطرُّفِ العنيفِ. بينمَا ينطوِي فريقُنَا المشتركُ، نحنُ فريقُ «أنصارِ الحضارةِ والإسلامِ وأوروبَّا» فِي تشكيلَتِهِ الأساسيَّةِ علَى الرَّحمةِ والاحتوَاءِ والتَّعليمِ والمساواةِ وسيادَةِ القانُونِ والمؤسَّساتِ والأملِ والمساءَلَةِ والتَّنميةِ والتَّغييرِ والقِيَمِ والمجتمعِ المشتركِ.
وبالطَّبعِ، فإنَّ ذلكَ عملٌ جماعِيٌّ، ولكن لكلِّ لاعبٍ دورُهُ الخاصُّ، وهوَ يقضِي معظمَ وقتِ المبارَاةِ فِي التَّعامُلِ معَ لاعبٍ أساسيٍّ منَ الفريقِ المنافِسِ، فلا بُدَّ للرَّحمةِ علَى الأغلبِ أن تعالِجَ الغضبَ، وللاحتِواءِ أن يعالجَ الإقصَاءَ، وللتَّعليمِ أن يعالِجَ الجهلَ، وللمساوَاةِ أن تعالجَ عدَمَ المساوَاةِ، ولسيادَةِ القانونِ أن تعالِجَ الظُّلمَ، وللمؤسَّساتِ أن تعالِجَ انعدَامَ الأمنِ، وللأمَلِ أن يعالجَ الخوفَ، وللمُسَاءَلَةِ أن تعالِجَ الشَّعبَوِيَّةَ، وللتَّنمِيةِ أن تعالجَ الفقرَ، وللتَّغيِّيرِ أن يعالجَ الجمودَ، وللقِيَمِ والمجتمَعِ المشتركِ أن يعالِجَا التَّطرُّفَ العنيفَ.
أمَّا فريقُ الأعدَاءِ فيقُودُهُ الذُّلُّ كمدَرِّبٍ، بينَمَا تدرِّبُ الكرامةُ فريقَ الأنصَارِ.
ويتمثَّلُ الاختلافُ الرَّئيسُ بينَ الفريقَينِ اللَّذَينِ يدرِّبهُمَا الذُّلُّ والكرامةُ فِي أنَّ العالَمَ الَّذِي تَهزِمُ فيهِ الكرامةُ الذُّلَّ، يكونُ فيهِ مكانٌ ليسَ فقط للبعضِ ولكن للجميعِ، بمَا فِي ذلكَ مشجِّعُو فريقَ الذُّلِّ. فليسَ هناكَ مستقبلٌ لَا لأوروبَّا صاحبَةِ مبادِئِ حقوقِ الإنسانِ والوحدةِ والتَّنوُّعِ دونَ أن يكُونَ فيهَا مكانٌ للإسلامِ؛ ولَا للإسلامِ غيرِ المستعدِّ لأن يكونَ جزءًا من أوروبَّا صاحبةِ مبادئِ حقوقِ الإنسانِ والوحدةِ والتَّنوُّعِ.
وَدَعُونِي أختَتِمُ حدِيثِي بمثالٍ ملمُوسٍ لكيفيَّةِ تعامُلِنَا معَ إحدَى أكبَرِ المشكلَاتِ الَّتِي قد واجهَتنَا فِي العقدَينِ السَّابقَينِ. لقد كانَ السَّيِّدَانِ: فُويَانُوفِيتش - رئيسُ مونتينيجرُو، ونيشَانِي- رئيسُ ألبانيَا، يتحدَّثَانِ عن قضيَّةِ المقاتِلِينَ الأجانِبِ فِي بلديهِمَا، والبُوسنَةُ كمثالٍ فريدٍ فِي هذَا الإطارِ يكشفُ أمرَينِ:

أوَّلُهُمَا: الطَّرِيقَةُ الَّتِي واجَهَ بهَا مسلمُو البوسنَةِ قضيَّةَ مقاتِلِي تنظِيمِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ فِي العرَاقِ والشَّامِ والمقاتِلِينَ الأجانِبِ، وهيَ القضيَّةُ الأشدُّ تعقيدًا فِي مجتمعٍ متعدِّدِ الأديَانِ كمجتمعِ البوسنَةِ والهرسكِ.
والأمرُ الثَّانِي: هُوَ كيفَ يمكنُ للمنهَجِ الكُلِّيِّ من خلالِ المؤسَّسَاتِ والإجماعِ الكامِلِ للمجتمَعِ الأكاديمِيِّ والسِّياسيِّ والحكُومِيِّ والدِّينيِّ أن يوفِّرَ استجابَةً مناسبَةً لأعظَمِ التَّحدِّيَّاتِ.
لقد شهدنَا منذُ أربعِ سنوَاتٍ صُدُورَ قوانِينَ عنِ البرلمَانِ تحظُرُ مشاركَةَ المواطِنِينَ البوسنيِّينَ فِي النِّزَاعَاتِ الخارجيَّةِ، وكانَ ذلكَ بمثابةِ استجابةٍ مؤسَّسِيَّةٍ لمشكلَةٍ كانت تُوَاجهُنَا.
والاستجابَةُ المؤسَّسيَّةُ هيَ الاستجابَةُ الوحيدَةُ الصَّحِيحةُ، ولكنَّهَا لَا يمكِنُ أن تُوَصِّلَ إلَى نتائِجَ صحيحةٍ دونَ أن تنطوِي علَى استجابةٍ شاملةٍ قائمةٍ علَى موقفٍ واضِحٍ، أو نوعٍ من أنواعِ «العقدِ الاجتماعِيِّ» بينَ المجتمَعِ المسلِمِ فِي مختلَفِ القِطَاعَاتِ وبينَ قيادةِ الهَيَاكِلِ الاجتماعيَّةِ والسِّياسيَّةِ المختلفَةِ الَّتِي تدعُو إلَى اتِّخَاذِ إجراءٍ مُؤَسَّسِيٍّ.
وهذاَ هُوَ السَّببُ فِي أنَّهُ بعدَ ذلكَ بعامٍ، حينَ كانَ تنظِيمُ الدَّولةِ فِي أوجِّ عِنفِوَانِهِ، قامَ كبارُ القيَادَاتِ الدِّينيَّةِ، ومسئولُونَ حكوميُّونَ، وقيادَاتٌ سياسيَّةٌ، وممثِّلُونَ أكاديمِّيُّونَ- وكلُّهُم مسلمُونَ، وبصفَتِهِمِ الشَّخصيَّةِ- بتوقِيعِ «بيانِ سرَايِيفُو المشتركِ للتَّنديدِ بالإرهابِ والتَّطرُّفِ العنيفِ».
وقد وقَّعُوا البَيَانَ كمواطِنِينَ فِي البوسنَةِ والهرسكِ، وكبوشنَاق وكمسلمِينَ، وكممثِّلِينَ للحيَاةِ الدِّينيَّةِ والثَّقافيَّةِ والسِّياسيَّةِ، يَحدُوهُمُ القلقُ بشأنِ الأعمَالِ الإرهابيَّةِ فِي البوسنَةِ والهرسكِ وفِي أوروبَّا وفِي العالَمِ.
وقد صرَّحُوا بوضُوحٍ قائلِينَ: «إنَّنَا نَعِي مسؤوليَّةَ حفظِ الحريَّةِ والسَّلامِ والتَّعايُشِ فِي وطنِنَا، كمَا أنَّنَا نَعِي مسؤوليَّتَنَا فيمَا يتعلَّقُ بمستقبَلِ البوسنَةِ والهرسكِ ومواطِنِيهَا».
وقد وجَّهُوا رسائِلَهُم إلَى الشَّعبِ والمؤسَّسَاتِ الحكوميَّةِ والمجتمَعِ المسلِمِ والدُّولِ المسلمَةِ والمجتمَعِ الدَّوليِّ والمسلمِينَ فِي البوسنَةِ والهرسكِ والطَّوائِفِ المسلمَةِ فِي أوروبَّا، كمَا حدَّدُوا فِي تسعِ نقاطٍ المبادِئَ الواضِحَةَ والقواعِدَ الإرشادِيَّةَ للمَعنِيِّينَ بهذهِ القضيَّةِ المعقَّدَةِ، وهيَ:

١- إنَّنَا نُدِينُ بشدَّةٍ أيَّ شكلٍ من أشكَالِ الإرهَابِ وجميعَ الأنشطَةِ الإرهابيَّةِ الَّتِي تجرِي فِي البوسنَةِ والهرسكِ، وفِي أوروبَّا، وفِي البِلدَانِ المسلمَةِ، وفِي أيِّ مكانٍ فِي العالَمِ.
٢- نُعَبِّرُ عن عَزمِنَا القَاطِعِ مُعَارَضَةَ أيِّ شكلٍ من أشكَالِ الرَّادِيكَالِيَّةِ والتَّطرُّفِ العنيفِ والإرهابِ؛ مؤسَّسِيًّا وفكريًّا وأخلاقيًّا وسياسيًّا، أيًّا كانَ الشَّخصُ أوِ الجانبُ الآخرُ الَّذِي يتأَتَّى ذلِكَ من جانِبِهِ. كمَا نسلِّطُ الضَّوءَ بشكلٍ خاصٍّ علَى الحاجَةِ إلَى تكثِيفِ الأنشطَةِ الَّتِي من شأنِهَا أن تزِيلَ علَى وجهِ السُّرعَةِ الظُّلَمَ وعدمَ المساوَاةِ وغيرَهَا من مصادِرِ الإحبَاطِ والرَّادِيكَالِيَّةِ فِي المجتمَعِ، وذلكَ علَى جميعِ مستوَيَاتِ السُّلطَةِ التَّشرِيعيَّةِ والتَّنفيذِيَّةِ.
٣- نُطَالِبُ المؤسَّسَاتِ المعنِيَّةَ فِي البِلادِ بالتَّصرُّفِ وفقَ اختصَاصَاتِهَا القانونِيَّةِ بهدَفِ الحفاظِ علَى القِيَمِ والحقُوقِ والحريَّاتِ الدُّستورِيَّةِ لجميعِ المواطِنِينَ وجميعِ الأطيَافِ فِي البوسنَةِ والهرسكِ، ومعارضَةَ جميعِ أنواعِ الرَّادِيكَالِيَّةِ، والتَّطرُّفِ العنيفِ والإرهابِ، دونَ أيِّ تحَفُّظٍ، بالإضافَةِ إلَى الأشكَالِ الأُخرَى للأنشطَةِ المُنَاهِضَةِ للنِّظَامِ الدُّستوريِّ، والسَّلامَةِ العامَّةِ، والأخلاقِ، وحياةِ الآخَرِينَ وصحَّتِهِم؛ أي تلكَ الَّتِي تَتَعَارَضُ معَ حقوقِ الآخرِينَ وحريَّتِهِم.
٤- نحنُ فخورُونَ بالتَّقالِيدِ الدِّينيَّةِ العتِيقَةِ وبالتَّصمِيمِ علَى التَّعايُشِ؛ ومن خلالِ احترَامِ دستورِ البوسنَةِ والهرسكِ ودستورِ الجاليَةِ الإسلاميَّةِ فِي البوسنةِ والهرسكِ، نُطالِبُ جميعَ الأشخاصِ الأكفاءِ فِي مجتمعِ البوسنَةِ والهرسكِ، وكذلكَ كلَّ أصحابِ النُّفُوذِ الدِّينيِّ فِي الجاليَةِ الإسلاميَّةِ فِي البوسنةِ والهرسكِ، أن يُعَارِضُوا دونَ أيِّ تحفُّظٍ كلَّ نوعٍ من أنواعِ الإقصَاءِ، والرَّادِيكَالِيَّةِ، والتَّطَرُّفِ العنيفِ والإرهابِ، لأنَّهُ وفقًا للمنظُورِ الإسلاميِّ: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" [البقرة: ٢٥٦]؛ وتلكَ الأعمالُ غيرُ مقبُولَةٍ وتتعَارَضُ معَ القِيَمِ الحضاريَّةِ العالميَّةِ.
٥- نتوقَّعُ من حكُومَاتِ الدُّوَلِ المسلمَةِ احترَامَ تقاليدِنَا الدِّينيَّةِ والتَّعليمِيَّةِ، ومؤسَّسَاتِنَا واستقلَالِنَا الذَّاتِيِّ، والتَّعَاوُنَ معَ مؤسَّسَاتِ الدَّولةِ فِي البوسنةِ

والهرسكِ، ومعَ الجاليَةِ المسلمةِ فِي البوسنَةِ والهرسكِ فيمَا يتعلَّقُ بالتَّبادُلِ الأكادِيمِيِّ والدِّينيِّ والتَّربَوِيِّ والطُّلَّابِيِّ.
٦- نتوقَّعُ منَ الدَّوائِرِ الدِّينيَّةِ واللَّاهوتِيَّةِ والتَّعليمِيَّةِ والمؤسَّسَاتِ فِي البُلدَانِ الإسلاميَّةِ احترامَ تجربَتِنَا التَّاريخيَّةِ الأصِيلَةِ وهُويَّتِنَا، الَّتِي دَفَعنَا من أجلِ الحِفَاظِ عليهَا ثمنًا باهِظًا وَفَقَدنَا الكثيرَ منَ الأروَاحِ. كمَا نتوقَّعُ منهُم أن يحترِمُوا وَعيَنَا الذَّاتِيَّ الدِّينيَّ الإسلاميَّ والأوروبيَّ كتُرَاثِنَا الَّذِي مَا نزَالُ نعيشُهُ ونُطَوِّرُهُ فِي سياقِنَا الثَّقافِيِّ والاجتماعيِّ والسِّياسيِّ الخاصِّ. ونتوقَّعُ منهُم أن يستمرُّوا فِي احترَامِ هذهِ المبادِئِ حتَّى لَا تَنشَأَ توَتُّرَاتٌ ونِزَاعَاتٌ دينيَّةٌ بينَ البوشنَاقِ.
٧- نتوقَّعُ من قادةِ الدُّولِ الأوروبيَّةِ -وخاصَّةً دولَ الاتِّحَادِ الأوروبيِّ، الَّتِي يشكِّلُ المسلمُونَ فيهَا أقلِّيَّةً- أن تقومَ بمكافحَةِ الخوفِ منَ الإسلَامِ والتَّمييزِ ضدَّ المسلمِينَ وبالتَّوَقُّفِ عن تشبيهِهِم بالإرهابِيِّينَ وأعداءِ الحضارَةِ.
٨- نتوقَّعُ مشاركَةَ المجتمعِ الدَّوليِّ، فِي إطَارِ الكفاحِ المشروعِ ضدَّ الإرهابِ، فِي إزَالَةِ الحواجِزِ السِّياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ تجاهَ الشُّعوبِ والبُلدانِ المسلمَةِ، لأنَّ هذَا الظُّلمَ يُسهِمُ فِي زيادَةِ الفقرِ واليأسِ والقنُوطِ؛ حيثُ تُمثِّلُ تلكَ الأمورُ تُربَةً مناسبةً لنموِّ التَّطرُّفِ.
٩- نتوقَّعُ من مسلمِي البوسنةِ والهرسكِ ومنَ المسلمِينَ فِي أوروبَّا أن يظلُّوا مُخلصِينَ لقِيَمِهِمِ الأخلاقيَّةِ والرُّوحيَّةِ والحضاريَّةِ التَّقليديَّةِ والعالميَّةِ، وأن يَنأَوا بأنفسِهِم عن أيِّ نوعٍ من أنواعِ التَّطرُّفِ، وأن يعارضُوا أيَّ شكلٍ من أشكالِ العنفِ، وألَّا يسمحُوا بالظُّلمِ، الَّذِي سيظَلُّ حاضرًا علَى الدَّوَامِ فِي هذَا العالَمِ غيرِ المِثَالِيِّ، وألَّا يتسبَّبُوا مطلقًا فِي أيِّ عملٍ قد يزِيدُ منَ الظُّلمِ أوِ الشَّرِّ، سواءٌ كانَ ذلكَ للآخرينَ أو لأنفُسِهِم.
واستنادًا إلَى هذَا البَيَانِ قامَت الطَّائفَةُ الإسلاميَّةُ بالشَّرَاكَةِ معَ الهياكِلِ الحكومِيَّةِ، والاتِّحَادِ الأوروبيِّ، وفرادَى البُلدَانِ بدَعمِ برنامجٍ موجَّهٍ نحوَ التَّعليمِ ومنعِ التَّطرُّفِ العنيفِ، فضلًا عن نَزعِ جذُورِ التَّطرُّفِ لدَى الأفرَادِ والكيَانَاتِ الأكثرِ عُرضَةً للتَّطرُّفِ فِي المجتمَعِ. وكانَتِ النَّتيجةُ أنَّهُ فِي آخرِ ثلاثِ سنوَاتٍ تقريبًا، لم تُسجَّل أيُّ واقِعَةِ مغادَرَةِ مسلمٍ بوسنيٍّ

واحدٍ البلادَ لأسبابٍ مشابِهَةٍ، كمَا كانَ انعدَامُ الأملِ والرَّخاءِ سببًا فِي وجُودِ عددٍ كبيرٍ منَ المهاجِرِينَ لظروفٍ اقتصاديَّةٍ، ولكنَّ ذلكَ ليسَ جزءًا من جدوَلِ أعمَالِ المؤتمَرِ اليومَ.
لقد فَقَدَ قرابَةُ ثلثِ العدَدِ الإجماليِّ -منَ البوشنَاقِ المقاتِلِينَ فِي صفوفِ تنظِيمِ الدَّولةِ- حيَاتَهُم فِي مناطِقِ قتالِ تنظِيمِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ، ومَا زالَ قرابَةُ الثُّلُثِ خارجَ البِلادِ، بينَمَا عادَ الثُّلثُ إلَى ديَارِهِم. وسيخضَعُ كلُّ هؤلاءِ الَّذِينَ عادُوا، بمَن فِيهِم مَن صَدَرَت ضدَّهُم أحكامٌ بسبَبِ انتهَاكَاتٍ للقانُونِ، واستنادًا إلَى بيَانِ «سراييفُو»، لبرنامجِ الاندمَاجِ ونزعِ جذورِ التَّطرُّفِ فِي مجتمَعِنَا، وذلكَ من خلالِ مؤسَّساتِ المجتمَعِ الإسلامِيِّ.
وتعلِيقِي الخِتَامِي فِي مَعرضِ حدِيثِي عن موضوعِ مؤتمرِنَا واضحٌ تمامًا؛ فالإسلامُ والغربُ، أوِ الإسلامُ وأوروبَّا «كمرآةٍ للغربِ»، وقِيَمُ الطَّرَفَينِ وآفاقُهُمَا المستقبلِيَّةُ قائمةٌ وستبقَى معًا، وكجزءٍ من مستقبَلِنَا المشتركِ فِي مجتمعَاتٍ مشتركةٍ، وإلَّا لَن يكونَ هناكَ مستقبلٌ لأيٍّ مِنَّا.
أمَّا تعقِيبِي الختامِيُّ بشأنِ بيَانِ «سراييفُو» حولَ التَّنديدِ بالتَّطرُّفِ العنيفِ، والَّذِي أَشَرتُ إليهِ كمثالٍ علَى أفضلِ الممارَسَاتِ؛ فهُوَ أنَّ النَّتائِجَ والنَّجَاحَاتِ تكونُ حتمِيَّةً حينَ تعملُ المؤسَّساتُ وفقَ عَقدٍ اجتماعِيٍّ للشُّركاءِ الأساسِيِّينَ وللقِطَاعَاتِ المختلِفَةِ فِي المجتمَعِ الَّتِي تشترِكُ فِي الأهدَافِ والقِيَمِ والأعمَالِ، وفِي هذهِ الحالَةِ، فإنَّ أوروبَّا والإسلامَ فِي البوسنَةِ كانُوا يتَقَدَّمُونَ يدًا بيدٍ، ككيَانٍ واحِدٍ. وقد كانَ ذلكَ مثالًا آخرَ للمَثَلِ القدِيمِ القائِلِ بِأَنَّهُ: «حيثُ تكونُ هناكَ إرادةٌ، يكونُ هناكَ سبيلٌ».
نحنُ هنَا معًا كَي نُعَبِّرَ عن إرادَتِنَا، فقد حانَ الوقتُ للسَّيرِ معًا فِي هذهِ السَّبيلِ؛ معًا وبهويَّاتِنَا المتعدِّدَةِ والمعزِّزَةِ لبعضِهَا البَعضَ.
ولو أنَّ أحدًا سألَنِي عن أيِّ الهُويَّاتِ المتعدِّدَةِ أُفَضِّلُ؟ فسأُشَارِكُكُم حينئِذٍ أفضلَ إجابةٍ تعلَّمتُهَا من كَهلٍ حَكِيمٍ منذُ مَا يقرُبُ من ثلاثَةِ عقُودٍ مَضَت، حينَ كانَ المجرمُونَ يقتلُونَ النَّاسَ بسبَبِ هويَّاتِهِم الخطَأِ والمختلفَةِ: «إنَّ أفضَلَ هُويَّةٍ لَدَيَّ والَّتِي سأُحَارِبُ دِفَاعًا عنهَا حتَّى النِّهايَةِ؛ هِيَ الهُويَّةُ الَّتِي تُهَاجِمُهَا أنتَ أشدَّ الهجومِ».

وسأظَلُّ حتَّى النِّهايَةِ أُثِيرُ أحدَ الأسئلَةِ الرَّئيسَةِ الَّتِي ينبغِي علَى أوروبَّا وعلَى الإسلَامِ معالجَتُهَا بشَغَفٍ وطاقَةٍ ومعرِفَةٍ أكثرَ. فمنذُ شهورٍ مضَت، أَقنَعَنِي صَدِيقٌ عزيزٌ أن أقرَأَ للفلَاسِفَةِ القُدَامَى مرَّةً ثانيةً - ولكن معَ التَّركِيزِ هذهِ المرَّة علَى منظُورِ اليومِ.

فالمعرفَةُ التّقنِيَّةُ "Techne" والحكمَةُ العمليَّةُ "phronesis" هُمَا نوعَانِ منَ المعرِفَةِ، كانَ أرسطُو يُضَاهِي بينَهُمَا، واللَّذَانِ سيشهَدَانِ نموًّا سريعًا فِي الفترَةِ القادِمَةِ ذاتِ التَّحدِّيَاتِ الأكبرِ فِي التَّاريخِ البشَرِيِّ، ولكنَّهُمَا يَنمُونَ بسُرعَاتٍ مختلِفَةٍ بصُورَةٍ خطِيرَةٍ.

إنَّ تاريخَ أوروبَّا وتاريخَ العربِ يحفلَانِ بحقَبٍ مُظلِمَةٍ، وكذلكَ بحقَبٍ مُضِيئَةٍ فيمَا يتعلَّقُ بالمعرِفَةِ التّقنِيَّةِ والحِكمَةِ العمَلِيَّةِ. وفِي زمنٍ يشهَدُ طَفرَةً فِي نموِّ المعرِفَةِ التّقنِيَّةِ عالميًّا، علينَا أن نواجِهَ التَّحدِّيَاتِ الَّتِي تشهدُهَا «الحِكمَةُ العمليَّةُ» بصورَةٍ أخطرَ ممَّا كانَت عليهِ فِي أيِّ وقتٍ سابِقٍ، فَكُلٌّ من كتابِ عمرَ إلَى القَاضِي(*)- والَّذِي يرمُزُ إلَى مَا يُمَثِّلُهُ المبدَأُ الجوهَرِيُّ الأوروبيُّ الحديثُ المعروفُ بسِيَادَةِ القانُونِ - والاتِّفاقيَّةِ الأوروبيَّةِ لحُقُوقِ الإنسانِ، يمنحُنَا الأمَلَ فِي أنَّ لدَينَا القدرَةَ علَى أن نُجَسِّدَ وحدةً فِي تنوُّعَاتِ «المعرِفَةِ التّقنِيَّةِ»، و«الحِكمَةِ العمليَّةِ».

إنَّنِي كشخصٍ واقِعِيٍّ مُتَشَاءِمٌ؛ ولكِنِّي كشخصٍ لَدَيهِ القدرةُ علَى التَّمَنِّي، ومدفُوعٍ بالشَّغَفِ والقِيَمِ والأخلَاقِ مُتَفَائِلٌ.